هذا ليس من الإنصاف

كان يتبقى لإبراهيم باشا خطوة واحدة فقط ويسحق الثورة اليونانية ويقضي عليها تمامًا، ولذلك أمدّه والده بالمدد الأخير الذي سيساعده على تنفيذ خطته، ويصبح عن جدارة قاهر الثورات في الدولة العثمانية بعد انتصاره على الثورة الوهابية، ولكن الانتصار هذه المرة سيكون له طعم مختلف، فهو في أوروبا الذي ذاع صيته بها كقائد قادم من الشرق لا تصمد أمامه الجيوش. وكان الثوار اليونانيون قد اجتمعوا يائسين محبطين في جزيرة هيدرا، ينتظرون وصول الموت في أيَّة لحظة. ولكن الدول الأوروبية ترفض أن ينجح إبراهيم باشا في مهمته، فيجتمع في لوندرة قادة بريطانيا وفرنسا وروسيا، ويتفقوا على تكوين تحالف لنجدة الثوار اليونانيين، ويعقدون معاهدة يسمونها معاهدة لوندرة، تقضي باستقلال اليونان مع احتفاظ الدولة العثمانية بسيادة رمزية فقط عليها، وأن ترسل كل واحدة من هذه الدول أسطولًا إلى بوغاز نافارين الذي اجتمع فيه الأسطولان المصري والعثماني انتظارًا لتنفيذ أوامر إبراهيم باشا. وكان الأسطول الإنجليزي أسبق الأساطيل المتحالفة إلى الحضور، وكان بقيادة الأميرال كودرنجتون الذي تقرر أن يقود جميع أساطيل التحالف، وبمجرد حضوره يتفق مع إبراهيم باشا على عقد هدنة، ليتم حل المشكلة بالتفاوض بين التحالف

والباب العالي، ولكن الثوار يهاجمون قوات إبراهيم باشا بعد ارتفاع روحهم المعنوية بوصول التحالف. ويلتقي إبراهيم باشا بالأميرال ريني قائد الأسطول الفرنسي ويقول له معترضًا:

– إنكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال، وفي الوقت نفسه تتركون الثوار يفعلون ما يشاءون، إن هذا ليس من الإنصاف في شيء.

– لا تقلق يا باشا، سنعمل على التزام الجانبين بالهدنة لحين انتهاء التفاوض.

والواقع أن خطة الحلفاء الحقيقية كانت ترمي إلى فرض الهدنة على الجانب المصري والعثماني فقط، وقد اتضح ذلك عندما تكررت هجمات الثوار على قوات إبراهيم، مما اضطرها للدفاع عن قواته، فثارت ثائرة الحلفاء واتهموه بنقض الهدنة. ويؤكد الرافعي أن إبراهيم كان يُقدِّر أساطيل الحلفاء ومبلغها من القوة، ويعلم أنها وإن كانت أقل عددًا من الأسطولين العثماني والمصري، إلا أنها أرقى نظامًا، وبوارجها أقوى سلاحًا، ومدافعها أشد فتكًا وأبعد مرمى، وقوادها وضباطها أكثر علمًا وكفاءة، فكان يرى الحكمة في تجنب الاصطدام بأساطيل الحلفاء، ووافق رأيه في هذا الصدد رأي والده، ولكن قادة الحلفاء بيَّتوا الشر للأسطول المصري والعثماني، واتفقوا فيما بينهم على تدميره، مهما كان مسلك إبراهيم باشا الذي طلب من الأميرال محرم بك والأميرال طاهر باشا عدم التحرش بأساطيل الحلفاء.

وفي اليوم الموعود اقتربت أساطيل الحلفاء من بوغاز نافارين، وأرسل الأميرال ريني إلى الضباط الفرنسيين المتواجدين على السفن المصرية كخبراء ومستشارين لمحرم بك، وطلب منهم الانسحاب من الأسطول المصري، والانضمام إلى الأسطول الفرنسي، فاستأذنوا من محرم بك في المغادرة، فلم يسعه إلا الإذن لهم بما طلبوا، وكان يعتقد هو وطاهر باشا أن الأمور مستقرة وليس هناك أي احتمال للقتال.

وفي الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ بدأت سفن الحلفاء تتأهب لدخول الميناء عند أول إشارة تصدر إليها، وعند تمام الساعة الثانية اقتحمت البوغاز، فأرسل الأميرال محرم بك رسولًا إلى البارجة آسيا التي تقل الأميرال كودرنجتون، وطلب منه أن يمنع سفن الحلفاء من الرسو في نافارين، فأجاب الأميرال الإنجليزي الرسول في لهجة جافة أنه لم يأتِ ليتلقى أمرًا، بل جاء ليملي أوامره، ثم تقدمت سفن الحلفاء طبقًا لما هو مخطط له على شكل نصف دائرة، واقتربت من السفن العثمانية والمصرية وجهًا لوجه، وصار بعضها على مرمى المسدس منها، وتم استفزاز السفن العثمانية والمصرية المحاصرة داخل البوغاز، ووقع القتال وانقلب المرفأ إلى بركان من الجحيم، فكان المشهد رهيبًا مروعًا، واستمر القتال حتى الخامسة مساءً وبلغ عدد القتلى من المصريين والعثمانيين ثلاثة آلاف، في حين لم يخسر الحلفاء سوى ١٤٠ شخصا.

وأخذ الحلفاء السفن المصرية والعثمانية غيلة من غير أن تنذرها أو تستعد للقتال، وقد تمثل الغدر في هذه المعركة البحرية في أبشع صورِهِ، إذ إنها وقعت دون أن يتم إعلان الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء، وقد فقدت مصر في هذه الواقعة أسطولها الذي قضى محمد علي السنين الطوال يبذل الجهود العظيمة، ويُنفق الأموال الجسيمة في إنشائه، وبعد هذه الكارثة يقرر محمد علي عدم الاستمرار في الحرب في اليونان، ويسحب قواته ويعقد معاهدة مع الحلفاء، وتبادل معهم الأسرى، بينما أصرت الدولة العثمانية على موقفها من معاداة الحلفاء، والغريب أن الباشا بعد تدمير أسطوله كان غضبه من الباب العالي، وليس ممن دمر الأسطول، لأنه اعتقد أن الباب العالي هو السبب فيما حدث، وقرر الباشا بعزيمة فولاذية إعادة بناء الأسطول من جديد. وقد قابل إبراهيم باشا ما تعاهد عليه والده بالسخط الشديد لَمَّا رأى جهود جيشه قد ضاعت، وكانت مصر قد جردت في حرب اليونان جيشًا ضخمًا وصل تعداده إلى اثنين وأربعين ألفًا خسرت منه ثلاثين ألفًا! واضطر إبراهيم باشا للإذعان، وأدرك أن ما حدث كان نتيجة اللعب مع الكبار، وأيقن أن مصر لم تصل إلى مستواهم بعد.